# المشرق

## من حماة الى حلب

رحلة حديثة للاب لويس شيخو اليسوعي

ليست الطريق بين حماة وحلب مجهولة فانَّ كثيراً من المسافرين يسلكونها كل يوم ذهاباً واياباً تقلّهم العجلات او يركبون صهوات الخيل واعلّهم قطعوا هذه الطريق متأففين سأماً من طولها واستكاناً من تواصل سهولها الفسيحة وهي اشبه من الماء بالماء ومن الثمرة بالثمرة . ولعلّنا نحن ايضاً كنا طفنا تلك البراري دون ان نجني من منظرها نفعاً لولا رغبتنا في ان نستفيد من أسفارنا لتفيد قرّاءنا مما شاهدتهُ العين او سمعتهُ الاذن من خواصّ تلك البلاد

أدّت بنا طُرُق سكّة رياق في مساء الحادي عشر ايلول الى حماة . فبتنا فيها ليلتنا معوّلين على المسير في غد الى الشهباء . وكان مهندسو السكّة الحديديّة بين حماة وحلب قد سبقونا ببضعة ايّام واقاموا حفلة شائقة لتدشين العمل في عيد الجلوس السلطانيّ السعيد على ان الاشغال النهائيّة لا يُباشر بها الّا في تشرين . وانّما كان العمّال وملتزمو اقساط السكة ومتولّو نظارتها يعدُّون لوازم الشغل فازدادت بهم حماةُ حركةً . امّا لحوال المدينة فكانت كما وصفناها في رحلتنا السابقة (راجع المشرق ٥ : ١٥٣ — ١٥٦) لا تزيد على ما قلناه هناك الّا ما افادنا عنهُ حضرة الخوري الياس مصري خادم كنيسة السريان في حماة وهو نموّ التطبيع الكاثوليكي بهمّة صاحب الغبطة السيّد البطريرك اغناطيوس افرام الرحماني وقد بلغ اليوم عدد الكاثوليك ٢٥ بيتاً ولم يتجاوزوا قبل ثلاث سنوات ثلاثة او اربعة بيوت والمأمول ان يزيد عددهم اذا ما بُنيت لهم كنيسة واسعة يقيمون فيها فرائضهم الدينيّة

ما تنفّس صباح النهـار حتى خرجنا من حماة ووجهتنا شمالها الشرقيّ راكبين عجلةً لاحد الحوذيين الحمويين تجرُّها اربعة من الخيل فكان مسيرنا اوّلاً على مجرى العاصي ثمَّ على جانب بساتين البلد الشهيرة فهناك اصناف الفواكه والحدائق الغنّاء التي لا يكاد ان يقعَ للشمس على ارضها شعاع لالتفاف اشجارها وتكاثف ازهارها واحرار بقولها . وكنّا نسمع صوت نواعيرها العظيمة تئنُّ في دورانها كأنّها الثكلى فقدت وحيدها فتذكّرنا قول ابن نباتة فيها:

وناعورةٍ قالت وقد ضاع قلبُها ... واضلُعها كادت تُعدّ من السقمِ
ادور على قلبي فاني فقدتهُ ... واما دموعي فهي تجري على جسمي

وقول الآخر :

اشبّه ما بين القواديس صوتَها ... ومن كلّ وجه ماؤها يتحدّرُ
بارملةٍ ضمّت اليها يتاما ... تنوحُ بشجوٍ والمدامعُ تقطرُ

ودام سيرنا بقرب المزارع والحارث ساعةً من الزمن يواجهنا في طريقنا اهل البساتين والضياع القريبة قادمين الى المدينة ليبيعوا فيها محاصيل املاكهم . وكان يعجبنا منظرهم وهم في الغالب رجال معتدلو القامة مفتولو الاعضاب شديدو البنية صهرت الشمس وجوههم ولهم الازياء العربيّة من قمصان سابغة في وسطهم الاكمار المحيكة وعلى رؤوسهم الكوفيّات الملوّنة تتوّجها العُقل الصوفيّة او الوَبَريّة . وكنّا نرى عن شمالنا آكاماً تنتصب على طرف الوادي وفي جوانبها نقور واسعة كأنّها المغاور وما تلك سوى مقالع الحجارة التي منها بُنيت بعض عمارات حماة

ثمَّ عطفنا على نهر الأرنط فتوغلنا في الصحاري المقفرة وكانت اذ ذاك السهول مقحلةً بعد حصاد الغلّات فلا يُرى من خضرتها الّا بعض الاعشاب النامية وكانت العين على مدى البصر لا تشاهد سوى المفاوز المتّسعة اللهمَّ الّا خطّ جبال النصيريّة كان يرتفع عن بُعد عند الأفق شمالاً . امّا القرى قليلة في تلك البراريّ وهي في الغالب على نمر السابلة

وكان اوّل ما لقينا في طريقنا القمحانة وهي مزرعة حقيرة دُعيت بذلك لشهرة قمحها ثمَّ قطعنا مرحتات وليس فيها عاربٌ وانّما هي اثار باقية من ازمنة غابرة تُرى فيها القبور المنقورة في الصخور والردوم والجدران المائلة التي تنبئ عن حالها القديم . وهناك

صهاريج يُنزل اليها بالدرج منها قديمة من تاريخ الابنية الخربة ومنها اقرب عهداً اتخذها اصحاب البرّ فجعلوها على معبر الطريق ليشرب منها السابلة . وقد وجدنا اكثرها ناشفاً

ثمَّ توغلنا في الصحراء ماثلين الى الشمال تطيف بنا من كل جانب مزروعات القمح والشعير التي لها في فصل الربيع مرأى تنشرح بنضارتها النفس فوصلنا في ضحى النهار الاعلى الى طيبة وهي قرية متوسطة في الكبر على ربوة تحدق بها الكروم لها جامع واهلها مسلمون . وبيوتها على شكل المخروط او اقراص النكّر مستديرة في اسفلها مروّسة في اعلاها . وكذلك اكثر القرى التي بين حماة وحلب . وهم يتّخذون لبنيانها رجيع الدوابّ فيخلطونهُ بالتبن ثمَّ يجعلونهُ اقراصاً يجفّفونها في الشمس . فاذا ارادوا ابتناء دار ركّبوا الاقراص على بعضها على سعة معاومة ثم طلوها باللاط . ودفعاً لحرارة القيظ ولبرد الشتاء يقيمون في باطن الدار جداراً ثانياً من الاقراص ينتهي الى سقف الدار ويلطونهُ من داخله كما فعلوا من خارجه . وهذه البيوت عادة لا منفذ لها غير بابها . واذا ارادوا ان يتّخذوا دارين او ثلاثة دور او اكثر جمعوا بينها بسور وفتحوا لها منفذاً في وسط السور . ومن رأى هذه القرى من بعيد ظنّها مقبرة . وقد سألتُ اهل تلك القرى عن سبب اتخاذهم هذه الهندسة لدورهم فاجابوا انها زيّ من الازياء اتّخذهُ اجدادهم فجروا عليهِ تشبّهاً . ولعلَّ اولئك اتّخذوا الشكل المخروط لئلا يتفذ المطر والثلج في سطح الدار او بالحري لقلّة الخشب اللازم لوضع السقف

ثمَّ سرنا نحو ساعة أخرى فوصلنا الى مرّة وفيها البطيخ الطيب . وكانت جبال النصيرية تلوح لنا من عن شمالنا مع قلاع قديمة استولى عليها الخراب كقلعة سيجر وقلعة المضيق وهي افامية الشهيرة

وفي ظهر النهار بلغنا خان شيخون بعد خمس ساعات لخروجنا من حماة . وخان شيخون هذه بلدة كبيرة ليس فيها غير المسلمين وهي في بطحاء متسعة يعلوها تلٌّ كبير على مثال قلعة حماة او قلعة حمص . وكنّا رأيناها قبل عشر سنين وقد تضاعف اليوم عدد سكّانها فيبلغون ثمانية الاف نسمة وقيل لنا انَّ رديفها ثلثمائة نفس وهي آخر قرى ولاية الشام . اما شيخون الذي نُسبت اليهِ القرية فهو امير كان عمّر هناك خاناً ترى حتّى الان آثارهُ

*

ليس بعد خان شيخون بلد يستحق الذكر سوى المعرّة . وهي معرّة النُعمان نسبةً الى نعمان بن بشير من ذوي الصحابة(١ وتمييزًا لها عن معرّة اخرى اصغر منها بجوارها اسمها معرّة الجرمل . وكان وصولنا الى المعرّة عند غروب الشمس بعد ان اجتزنا في بساتينها التي تكتنفها . وهذه البساتين هي اليوم قليلة الاتساع وكانت في سالف الزمان تمتدّ بضعة اميال . قال ابن جبير احد مشاهير كتبة القرن الثاني عشر « انّ بلاد معرّة سوادٌ كلُها شجر الزيتون والتين والفستق والفواكه ويتّصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقًا »

والمعرّة بلدة قديمة سبقت عهد الاسلام وان لم يُعرف من امرها الّا القليل ومما يدلُّ على قدمها القبور العاديّة التي وُجدت حديثًا في ربضها والآثار الطامسة التي تُعاين في جهاتها والنقود الرومانيّة التي اكتُشفت في ردومها ومنها ما يرتقي الى القرن الثالث للمسيح . وقد رأينا بعض احيائها ابوابًا من الحجر الاسود الصلد نُقشت على وجهها نقوش نصرانيّة قديمة بينها رموز الى السيد المسيح كالحرفين اليونانيين A و Ω او اشارة الى اسمه الكريم بالحرفين XP او الهام بسرّ قربانه الاقدس كصورة الخبز وهذه الابواب كما يظهر من القرن السادس للمسيح . وكان في المعرّة اساقفة

وقد اضحت هذه المدينة بعد الفتح الاسلاميّ عامرة اشتهر فيها قومٌ من كبار الرجال في مقدّمتهم ابو العلاء المعريّ الشاعر المتفنن الطائر السمعة الذي برّأنا ساحتهُ في احدى مقالات المشرق ( ٤ : ١٠٦٨ ) من وصمة الكفر الشنعاء . وقبر هذا العلّامة الخطير محفوف بالكرامة رأيناهُ في احدى زوايا البلدة وعلى ضريحهِ كتابة قديمة بالكوفيّ . وبقرب رمسهِ مدفون بعض من تلامذتهِ . وفي غرفة أخرى مجاورة لقبرهما قبر الشيخ محمّد النباريّ

وقد خرج من المعرّة فضلًا عن هؤلاء ادباء كثيرون منهم الشاعر ابو الفتح بن ابي حصينة المعريّ الذي اشتهر بخدمة بني مرداس اصحاب حلب ومدح كبيرهم نصر بن

---

١) ويقال انّ النعمان الذي نُسبت اليهِ المعرّة هو النعمان التنوخي الملقّب بالباطع . وهو راي ياقوت امّا ابن بطوطة فذكر رأيًا آخر وهو انّ النعمان اسم جبل مطلّ على المعرّة سُمّيت بهِ وقال انّ اسمها القديم كان ذات القصور

مرداس . ومنهم القاضي ابو القاسم حسن التنوخي المعرّي المتوفى سنة ٤١٩ هجريّة (١٠٢٨م) ولهُ مصنفات ووصايا واشعار . ومما يُستحسَن لهُ قولهُ :

انعِ الى من لم يَمتْ نفسهُ فانهُ عمّا قليلٍ يموتْ
ولا تقل فات فلانٌ فما في سائر العالم من لا يفوتْ
ألا ترى الاجداث مملوّةً لمّا خلت من ساكنيها البيوتْ
فاقنعْ بقوتٍ حسبَ من لم يكن عندًا في هذه الدار قوتْ

والمعرّة اليوم قائمقاميّة تابعة لولاية حلب . واهلها نحو ٥٠٠٠ نفس . وكان نزولنا في الخان الذي شيّدهُ مراد المعروف بالجلبي منذ نيّف وثلثمائة سنة . وبازائهِ خان آخر من بناء سنان باشا . وللمعرّة قلعة خربة . وفي ظاهرها على بعد فرسخ منها قبر عُمر بن عبد العزيز . امّا جامع المعرّة ففيهِ قسمٌ قديم صبر على صروف الزمن من ذلك منارتهُ الحسنة الهندسة التي قيل لنا انها من بناء عُمر بن الخطّاب ولعلّ القائل اراد عمر بن عبد العزيز السابق الذكر . والقسم الآخر كان سقط بسبب الزلازل فجدّد بناءهُ ابو الفداء صاحب حماة والكاتب الشهير . وممّن لقيناهم من رجال الفضل في المعرّة جناب مفتيها سعدي افندي الذي حظينا بزيارتهِ فاحتفى بنا واكرم مثوانا . وذُكر لنا ايضاً بالخير الشيخ محمّد رمضان الذي خلف اباهُ بالتدريس والعلوم العربيّة

وعلى مقربة من المعرّة في غربيّها وشمالها قُرًى شهيرة بآثارها النصرانيّة كالبارا وسرجلّة والحسّ ودانا فيها مدافن وبقايا اديرة وكنائس وحمّامات ومحابس منقورة بالصخر عليها الكتابات اليونانيّة والرموز الدينيّة . وقيل لنا انّ في سرجلّة وُجدت فسيفساء ذات نقوش بديعة تمثّل حيوانات ونباتات واصناماً الّا انّ جهل البعض أدّى الى اتلافها

وكان سفرنا من المعرّة اليوم التالي قبل الفجر بثلاث ساعات في وجهة الشمال الشرقي فمررنا عند السحر في خان سبل او سنبل وهي قرية عامرة تدلُّ آثارها على انّها كانت قبلًا ذات شأن . ومن الامور المضحكة ما عرض لنا في هذه القرية في رحلة سابقة فاننا نزلنا فيها للمبيت في طفل النهار فخرجنا لظاهر القرية لترويح النفس من مشقّة السفر وكان في يدنا كتاب الصلاة لتلاوهُ في عزلة من القوم واذا بسابر طريق رآنا عن بُعد فظنّ انّ للمكان مرصودٌ واننا نفكّ الرصد لاستخراج كنز دفين فتقرّب

منّا وسألنا عمّا نفعل فاجبناه بلطف اننا نتلو صلاتنا الى الله فلم يقتنع واخذ يلح علينا بان نعطيهُ قسماً من الكتز . فلمّا شعرنا بسوء نيّته رجعنا الى منزلنا وهو يتعقّبنا ولولا بعض اهل القرية الذين رأوا جهلهُ فأمسكوهُ لأصابنا اذاهُ . فانتهزتُ الفرصة لاعرض على هؤلاء الجهّال ذكر الاخوة التي هي الكنز الوحيد الذي يحقُّ للانسان ان يطلبهُ بخدمة ربّهِ

وخان سبل هي نصف الطريق بين حماة وحلب . ومنها الى الشهباء دربان قديم وحديث فالقديمة لا يصلح للعجلات ويمرُّ على سرمين وقنّسرين غرباً وهما مدينتان جليلتان اصابتا قبل حلب مجداً عظيماً وكانت سرمين كثيرة البساتين شهيرة بمعامل صابونها الذي كان يُنقل الى الشام ومصر وكانوا يصطنعون منهُ ضروباً شتّى كالصابون الاجزي والصابون المطيّب لغسل الايدي وكانوا يصبغونهُ بالالوان شأن الصابون الغربيّ في ايّامنا . وكانت قنسرين تدعى سابقاً كَلّيس تتوارد اليها تجارة الهند والعجم والعراق كما نُقلت بعد ذلك الى حلب لما خربت قنسرين . اما الدرب الحديث فيقطع السهول توًّا شرقيّ سرمين وقنّسرين فلقينا بعد خان سبل بعض القرى وكان اهلها يذرّون الغلّات في بيادرهم فواصلنا السير الى الشيخ احمد قرية اخرى اقمنا في خانها اربع ساعات ولم نجد فيها ما يستحقُّ الذكر . الّا اننا اجتمعنا هناك باحد فضلاء الشهباء كان سبقنا اليها لنظارة املاكهِ في تلك الانحاء وهو السيّد محمّد رضا الجابري من اسرة حلبيّة عريقة في الشرف

ورحلنا بعد ظهر النهار الى حلب ومن خان شيخ احمد اليها نحو خمس ساعات فمررنا على سراقب ثمَّ على زربة وفي كلّ هذه الانحاء اخربة قديمة يرتقي بعضها الى عهد الرومان ويُرى عليها صابان وآثار مسيحيّة . وكان على شمالنا جبل الاربعين ثم جبل ريحا وكان كلاهما قديماً حافلاً بالسكان . اما من عن يميننا فكانت تلوح لنا جبال العيس وفيها على ما قيل لنا نحو ٢٠٠ ضيعة وهي كلُّها من الاراضي السلطانيّة . وعندها ستمرّ السكّة الحديديّة قريباً

ثمَّ وصلنا قُبَيل العصر الى خان تومان وهو خان كبير واسع الارجاء قد خرب قسمٌ منهُ نُسب الى الامير تومان الذي ابتناهُ لابناء السبيل ولقفول التجارة . وقرب الخان قرية يجري بقربها نهر القويق الجاري في حلب . وقيل لنا انَّ القويق

الذي رأسهُ عند عين تاب يفيض في الصحراء قريباً من حلب اما نهر خان تومان فمن عين تسمّى عين مبارك تصبُّ في القويق . وفي شرقيّ شمالي خان تومان هذا قرية نيرب وُجدت فيها كتابة آرامية قديمة ذكرناها في المشرق هذه السنة (ص ١٢٨)

تسير الطريق من خان تومان الى حلب بين آكام قليلة الارتفاع واودية قريبة الغور الى ان يبلغ المسافر الى رابوسة وهي قرية حقيرة يكتشف الناظر من عندها قلعة حلب ومنائرها كأنّها الاير دقّةً ولا يلبث بعد قليل ان يدخل وسط المزدرعات التي تزين المدينة من غربها وجنوبها . فهناك اشجار الزيتون العاديّة والتين والكروم وهذه الاشجار تزيد عدداً والتفافاً على قدر ما يقترب المسافر الى المدينة وتتوفّر مياه نهر القويق

*

حلب في بطحاء فسيحة تُحدق بها التلال كأنّها السور يحضنها ويردُّ عنها الغارات . فدخلناها في مساء الاربعاء ١٣ ايلول عائدين اليها بعد عشرين سنين ورأيناها ازدادت جمالاً وازدادت احياء صارت لها كمدينة جديدة لاحقة بها كالسليمانيّة والوكيليّة والحميديّة والعزيزيّة والجميليّة وكلّها مبنيّة على طرز المدن المستحدثة واسعة الشوارع منتظمة البنيان متقنة الهندسة . وقد أُقيمت لها كما في بيروت ساعة في احدى ساحاتها ترى ويُسمع صوت دقّاتها عن بُعد

وكان المهندسون للسكّة الحديديّة يوم دخولنا ينجزون الاقيسة لمدّ الاسلاك ويتفاوضون مع سعادة الوالي ووجوه البلد في تعيين محل المحطّة أيجعلونها خارجاً عن البلد او قريباً من القلعة او في ساحة الجميليّة وهذا الرأي الاخير كان المرجّح ولعلّهم يتّفقون على اختياره

وليست غايتنا هنا ان نصف حلب وآثارها العديدة او ندوّن مزاياها الفريدة فانّ حضرة الاب بولس جرون قد استرسل في هذا الموضوع في مقالته عن حلب (المشرق ٢ : ١١٤ و ١١٦) وانّما نجتزئ بذكر ما عاينّاه في مدّة الاسبوعين اللذين قضيناهما في الشهباء

يرتأي العارفون باحوال حلب انّ اهل هذه المدينة يربون اليوم على ١٥٠٠٠٠ نفس ثُلثهم على الاقلّ من النصارى يتهم الكاثوليك نحو ٢٥٠٠٠ اكثرهم الروم الكاثوليك ثمّ الارمن ثمّ السريان ثمّ الموارنة ثمّ الكلدان ثمّ اللاتين . اما غير

الكاثوليك فاكثرهم الارمن الغريغوريّون يبلغون نحو ٣٠٠٠٠ نفس ثم الروم الارثوذكس في عدد قريب من الالف مع قليل من اليعاقبة. وفي حلب اربعة رؤساء اساقفة على الكاثوليك وللكلدان نائب بطريركيّ . ويرعى اللاتين حضرة الآباء الفرنسيسيين

قد عُرف الحلبيُّون بنجابتهم وتوقُّد اذهانهم وحذقهم في العمل ولهم الاخلاق الدمثة والانس في المعاملة يرحّبون بالغريب ويأنسون بالوافد. وحلب غنيَّة بمآتي الحياة تتوفَّر فيها اسباب المعاش من ضروب المآكل والاثمار والبقول وهي تباع باثمان بخسة. وكذلك تكثر فيها الانسجة والاقمشة وكلّ اصناف الملابس واثاث البيوت بعضها بلديّة والبعض الآخر يأتيها من البلاد الاوربيَّة. وللصناعة في حلب سوق رائجة يمكن اهلها لو ارادوا أن يصطنعوا كثيرًا من الاشغال الاجنبيّة كالمصاغات والحليّ والاسلحة والادوات النحاسيَّة والحديديَّة ورقم الاقمشة وشغل القصب والصابات واشياء أُخرى غيرها

والتجارة في حلب في تحسُّن. واهلها يؤملون لرواجها خيرًا عند نجاز السكَّة الحديديَّة لتوفير المواصلات وتسهيلها وسرعتها . امَّا الزراعة فقد بلغت ثلثة اضعاف ما كانت عليه منذ عشرين سنةً ومن مزروعاتهم الرائجة القطن والسمسم والحبوب والتبغ وعرق السوس فضلًا عن الحبوب من حنطة وشعير وذرة وعن الفواكه الطيّبة من بطّيخ وكمثرى وعنب ورمّان وفستق واثمار غيرها فاخرة

والمدارس في حلب تعنى بتدريس مبادئ القراءة والكتابة وشيء من الصرف والنحو والحساب يزيدون على ذلك في مدارس الاناث بعض الاشغال اليدويَّة كالخياطة والتطريز. ولحضرة الآباء الفرنسيسيين مدرسة داخليّة عامرة وطلبتُها يدرسون مع العربيَّة اللغات الايطاليَّة والفرنسويَّة والانكليزيَّة والتركيَّة. ولطائفتي الروم الكاثوليك والارمن مدرستان زاهرتان يعلّم فيهما بعض من فضلاء الكهنة والاخوة المرسلين. وكذلك للسريان مدرسة تُدعى مدرسة الترقّي يديرها بغيرة حضرة المنسيور جرجس شلحت. امَّا مدارس الاناث فيتولى تدبير اغلبها الراهبات اليوسفيَّات وراهبات قلبي يسوع ومريم وراهبات الحبل بلا دنس الارمنيات هذا فضلًا عمَّا للحكومة السنيَّة من الكتاتيب منها مكتب اعدادي ملكي ومكاتب اخرى مختلفة

وفي الشهباء مطبعتان الواحدة مطبعة الولاية فيها تُطبع جريدة فُرات الرسميَّة وتنشر النشرات النظاميَّة ومطبوعات الحكومة السنيَّة والاخرى المطبعة الارمنيَّة التي

وصفناها في مقالتنا عن فنّ الطباعة في حلب ( راجع المشرق ٣:٣٥٥ ) ولصاحب السيادة المطران يوسف دياب الجزيل الاحترام رغبة في توسيع نطاقها وتوفير ادواتها وتجديد حروفها . وقد بلغنا انّ بعض ادباء الشهباء نالوا رخصةً في فتح مطبعة ونشر مجلّة علميّة فنتمنّى لهم التوفيق والنجاح

واهل حلب في كل طبقاتهم مشهورون بتديّنهم لم يكدّر صفاء تقواهم روح العصر الجديد اللهمّ الّا بعض الافراد منهم . وترى في الشهباء من الجوامع والمساجد والكنائس ما يقلّ مثلها عدداً وحسناً في غيرها . قيل ان عدد الجوامع يتجاوز الثلثمائة ولاكثرها المنائر الجميلة المرتفعة امّا الكنائس فهي تُربي على العشرين اكبرها كنيسة الموارنة لها قبّة عالية ينظرها الناظر من بعيد واذا دخلت هذه الكنائس حتّى في ايّام الاسبوع وجدت فيها قوماً من المصلّين القائمين لربّهم . ولكلّ الطوائف الكاثوليكيّة شركات خيريّة واخويّات تدلّ على غيرة اصحابها وتحسّهم الديني . وقد حضرنا في دير الاباء اليسوعيين بعض هذه الاجتماعات الصالحة فكنّا نرى الكنيسة تغصّ دائماً بالحضور من ارباب الصلاح

وفي حلب قومٌ من الادباء يتعاطون العلم وينعكفون على التدريس ويزاولون الكتابة والتأليف توفّقنا الى مواجهة البعض منهم للاقتباس من انوارهم كالشيخ كامل افندي الغزّي الذي يشتغل بتصنيف تاريخٍ واسع لموطنه حلب قرأ لنا شيئاً منهُ والشيخ احمد افندي الزرقاء اطلعنا على فقراتٍ من انشائهِ وافتح لنا خزانة كتبهِ ويطنب اهل الشهباء على معارف بيت الجابري وبيت الحلبي ويستعذبون شعر عبد الفتّاح افندي الطرابلسيّ والشيخ بشير افندي الغزّي وغيرهما من افاضل المسلمين . امّا النصارى فهي مقدّمتهم اساقفتهم الاجلّاء الموصوفون بسموّ المدارك وسعة الآداب وهم يسعون بترويج العلوم كما يهتمّون بتعزيز الدين ولبعضهم مؤلفات حسنة وقفنا عليها . ومنّ عُرف من الكهنة بفضلهم واجتهادهم في سبيل العلم وفتحوا لنا مكاتبهم حضرة الاباء جرجس منش وميخائيل اخرس الماروني وجرجس شلحت وتوما ايّوب السريانيين وبولس بليط الارمني وبطرس عزيز الكلداني وكلّهم مصنّفات طُبع قسم منها ونؤمل نشر باقيها قريباً . ونخصّ بالذكر بين ادباء النصارى جرجس افندي خيّاط وقسطاكي افندي حمصي وميشال افندي صقّال وبعض وجوه أُسرة الاسود وغيرهم

وكانت حلب سابقاً مدينة الكتب تكثر فيها المخطوطات لكثرة أدبائها ومدارسها وقد بيع منها قسم كبير حصل عليه الاجانب باثمان بخسة . وقد اقتنينا نحن ايضاً منها نصيباً كما ذكرنا في وصف مخطوطات كليتنا الشرقية . وفي رحلتنا هذه الحديثة لم نرجع بخفي حنين بل اصبنا منها شيئاً لا سيما من التآليف النصرانية التي كُتبت في القرون الثلثة الاخيرة

ومما اطّلعنا عليه من المصنّفات الاسلامية الجديرة بالذكر بعض مخطوطات تُصان في المدرسة الاحمدية تفضّل جناب السيد احمد افندي الچلبي فارانا اياها منها التهذيب لابي منصور محمّد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠ (٩٨١) في عدة مجلدات وهو من الكتب المختارة التي لم يُعرَف لها الا نسخ قليلة ولعلّ احمد فارس منهُ استفاد في كتابهِ المعنون بسرّ الليل . ومنها كتاب ما يُعوّل عليهِ من الامثال لمحمّد لمين المحبّي وهو كتاب نفيس كثير الفوائد واسع المواد مرتّب على حروف المعجم . وكتاب الذيل على مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والاعيان لابي الفرج بن الجوزيّ ألّفهُ قطب الدين موسى ابن محمّد اليعلبكي . وكتاب طبقات الملوك للثعالبيّ يحتوي اخبار الفوس مباشرةً بكيومرث ملكهم الاوّل ثمّ اخبار بعض الدول القديمة كالفراعنة وبني اسرائيل وملوك حمير والعراق . وهذا الكتاب هو غير كتاب تاريخ الفرس للثعالبي الذي نشرهُ في باريس العلّامة زوتنبرغ . وفي فهرست هذه المدرسة كتاب للفارابي يُدعى الرسالة الفتحيّة في الموسيقى وكأنهُ فقد اذ لم يمكن اكتشافهُ

وقد وجدنا عند جناب الوجيه فردريك بوخه تاريخاً لمصر والقاهرة لم نرَ له ذكراً في خزائن الكتب يُنسب للتزويني وقد ذهب اسم الكتاب والمؤلف فدوّنّا كلاهما بقلم حديث على الصفحة الثانية . وهذا التأليف يصف مدينة القاهرة منذ ابتناها جوهر للفاطميين وصفاً موسّعاً على مثال الخطط للمقريزي لم يدع شيئاً من شوارعها ولسواقها وقصورها وخزائنها وجوامعها الّا وصفهُ . وهاءنذا الفصل الذي خصّهُ بخزانة الكتب استنسخناهُ لفوائدهِ :

ذكر خزانة الكتب

قال المسبحي وذكر عبد العزيز بانهُ كتاب العين للخليل بن احمد وامر خزّان دفاترهِ فاخرجوا من خزائنهِ نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل بن احمد . وحمل اليهِ رجل نسخةً من كتاب تاريخ الطبراني اشتراها بمائة دينار فامر العزيز الخزان واخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبراني منها نسخة بخطهِ وذُكر عندهُ كتاب

الجمهرة لابن دريد فاخرج من الخزانة مائة نسخة منها . وقال في كتاب الذخائر التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر اربعون خزانة من جملتها ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة وانَّ الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدَّة المستنصر الفان واربعمائة خمسة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاَّة بذهب وفضة وغيرها وانَّ جميع ذلك كلّه ذهب فيما اخذ الجند في ارزاقهم بعض قيمته ولم يبقَ في خزائن القصر البرَّانيَّة منهُ شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصَّل اليها . ووجدتُ صناديق مملوَّة اقلاماً مبريَّة من برايـة ابن مقلة وابن البواب وغيرهما

(قال) وكنتُ بمصر في العشر الاوَّل من محرَّم سنة احدى وستين واربعمائة فرأيت منها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتباً محمولة الى الوزير ابي الفرج محمَّد بن جعفر المغربي فسألتُ منهـا فعرفتُ انَّ الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بايجاب وجبت لهما عمَّا يستحقَّانهِ وظلماها من ديوان الجلس (كذا) وانَّ حصَّة الوزير ابي الفرج منها قُوِّمت عليهِ من جاري ماليكهِ وظلمانهِ بخمسة آلاف دينار

وذكر لي من لهُ خبرة بالكتب انها اكثر من مائة دينار (كذا) ونُهب جميعها من دارهِ يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نُهب من دون من سار معهُ من الوزير ابي الفرج وابن ابي كدينة وغيرهما هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ما صار الى عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق بالاسكندرية ثمَّ انتقل بعد مقتلهِ الى الغرب وسوى ما ظفرت بهِ لواته(؟) محمولاً مع ما صار اليهِ بالابتياع والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة ٤٦٠ وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحَّةً وحسنَ خطّ وتجليداً وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونهُ في ارجلهم واحرق ورقها تأولاً منهم انها خرجت من القصر . . . . وانَّ فيهـا كلام المشارقة (كذا) الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليهِ الرياح التراب فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي اثار تعرف ببلاد الكتب

وقال ابن الطوير: خزانة الكتب كانت في احد مجالس البيمارستان اليوم يعني المارستان العتيق فيجيء . . . واكبَّا ويترجَّل على الدكة المنصوبة ويجلس عليهِ ويحضر اليهِ من يتولاها وكان في ذلك الوقت الجليس ابن عبد القوي فيُحضر اليهِ المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحهُ من الكتب فان عنَّ لهُ أخذ شيء منهـا اخذهُ ثمَّ يعيدهُ وتحتوي هذه الخزانة على عدَّة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم والرفوف مقطَّعة بحواجز وعلى كل حاجز باب متقل بفصلات وقفل وفيها من اصناف الكتب ما يزيد على مائة الف كتاب من المجلَّدات وبسير من المجرَّدات فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والتجامة والروحانيَّات والكيميا من كل صنف النسخ ومنهـا النواقص التي ما تمَّمت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها والمصاحف الكريمـة في مكان فوقها وفيها من الدروج بخطّ ابن مقلة ونظائرهِ كابن البواب وغيرهِ وتولى بيعها ابن صورة في ايَّام . . . الناصر صلاح الدين فاذا اراد . . . الانفصال بشيء منها اخذها لنظرها وفيها نسخان وفراشان صاحب المرتبة

وآخر فيعطى المساعد عشرين ديناراً او يخرج الى غيرها. وقال ابن ابي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر: « ومن جملة ما باعوهُ خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ويقال انهُ لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ومن عجائبها انهُ كان فيها الف ومائة نسخة من تاريخ الطبراني الى غير ذلك ويقال انهُ كانت ( تحتوي ) على الف (الف) وستمائة الف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة اشياء كثيرة » انتهى. ومما يؤيد ذلك انَّ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ لمَّا انشأ المدرسة الفاضليَّة بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة الف مجلَّد وباع ابن صورة جملةً منها في مدَّة اعوام فلو كانت كلها مئة الف لما فضل عن القاضي الفاضل منها شيء كثير وذكر ابن ابي واصل انَّ خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين الف مجلَّد. (انتهى بحرفهِ)

ومن الآثار الاسلاميَّة التي رأيناها كتاب الدرّ المنتخب في تاريخ حلب لعلاء الدين ابن الخطيب عند كامل افندي الغزّي. وكتاب شرح مقامات الحريري للمطرّزي في مكتبة الموارنة. وفي هذه المكتبة كنَّا رأينا في رحلة سابقة كتاباً نفيساً في عجائب المخلوقات اسمهُ نزهة العيون ولم نجدهُ هذه المرَّة. وفي تركة المرحوم اريك فتُّو قنصل ايطالية في حلب وبيروت نسخة بديعة منهُ. ووجدنا ايضاً عند حضرة الخوري جرجس شلحت نسخةً من كتاب جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس لابي القاسم عبد الرحمان المعروف بابن الخطيب وكتاب المذكَّر والمؤنث للفرَّاء تاريخهُ سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م). ونسخة من كتاب الاضداد لابن الانباري (وقد طبع في ليدن) عند الاديب قسطاكي افندي الحمصيّ. وكتاب التيفاشي في المعادن والجواهر عند الشيخ احمد افندي الزرقاء. وعندهُ ايضاً كتاب الوشي المرقوم في حلّ المنظوم وهو منسوب للبديع الهمذاني والمشهور انهُ لابن الاثير. وعند الطبيب الفاضل ميخائيل افندي جدّ كتاب المغني في الطب لابي الحسن سعيد بن هبة الله وكتاب نور العيون وجامع الفنون للشيخ ابي زكريَّا يحيى بن ابي الرجا الطبيب وكتاب ديوان الطبّ المعروف بالمائة لابي سهل عيسى بن يحيى المسيحي كُتب سنة ٦٨٦ (١٢٨٧م) وكتاب عجائب المخلوقات للقزويني كُتب سنة ٩٨٨ هـ. (١٥٨٠م). وفي المكتبة المارونيَّة كتاب دمية القصر في تراجم ادباء العصر لأبهُ الباخرزيّ تتمَّةً لكتاب يتيمة الدهر للثعالبي. وديوان سيف الدين علي ابن سابق الدين عمر بن قزل بخطّ قديم. وكتاب ادب القضاة لحسام الدين عمر بن عبد الله الشعراني. وكتاب مفتاح الرحمة وكنز النعمة في الكيمياء. وكتاب تاج للداخل لمحمَّد ابن عبدالله الشريفيّ في

الفلكيات . وكتاب البرهان في علم الميزان للجلدكي . وكتاب الكافي في الطب لابي نصر عدنان بن منصور بن العين زربي . وكتاب التشريح الطبي لصاعد بن الحسن

وقد لقينا ايضاً كتباً نصرانيَّة مهمَّة نذكر اخصَّها . فمن ذلك نسخة من الاناجيل المقدَّسة على تقسيم الآحاد والاعياد حسب الطقس الملكي كُتبت في مصر كما تدلّ عليهِ الارقام القبطيَّة . في اوَّلها « بسم الاب الخ . نبتدئ بعون الله وحسن توفيقهِ . . . بكَتْب الاربع الاناجيل المقدَّسة . اوَّل ذلك بشارة القديس متَّى الانجيلي الطاهر صلاتهُ تكون معنا امين . ( الاوَّل منهُ ليوم الاحد قبل الميلاد المجيد ) . كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود . . . » . وفي نهاية الاناجيل الاربعة كلندار سنوي للقديسين مع ما يُقرأ من الفصول في عيدهم : « نبتدئ بعون الله وحسن توفيقهِ . . . نكتب سنكساري اي مجموع السنة ( كذا ) كلّها نذكر فيهِ اسم كل قديس وما يخصُّهُ من فصول الاناجيل المقدَّسة في طول اثنا عشر شهور ( كذا ) السنة . اوَّل ذلك شهر ايلول . اوَّلهُ رأس السنة . وللسيِّدة ولسمعان الحلبي . . . الثاني ماما الشاهد وليرحنا الصوَّام . . . الثالث افتيموس . . . الرابع فافيلا . . . الخامس زخريَّا النبي . . . السادس ميخائيل الملاك . . » . وفي آخر الكتاب « نجز نسخ الانجيل المقدَّس ينبوع الحياة والمرشد الى الخلاص بشارة الانجيليين المعظَّمين في الرسل متَّى ومرقس ولوقا ويوحنا بتراتيبهِ الشريفة على طقسها وكمالها . . . وذلك في رابع عشر شهر حزيران سنة ستة آلاف وثمانمائة وخمسة واربعون ( كذا ) من ابينا آدم عليهِ السلام ومسيحيَّة سنة الف وثلثمائة وسبعة وثلثين » . وهذه النسخة عند حضرة الخوري المفضال نيقولا اديب السرياني نذكر منها لبيان خواصّها اسطراً من اوَّل متَّى واوَّل لوقا :

( قراءة للميلاد سحر قبل القداس ) ومولد يسوع المسيح فعلى هذه الجهة كان عند ما خُطبت مريم أُمُّهُ ليوسف صودفت قبل اتفاقها حُبلى من الروح القدس وكان يوسف رجلاً صديقاً فاذ لم يشأ ان يشتهر امرُها اراد ان يصرفها سرّاً فعند افتكارهِ في ذلك اذ بملاك الربّ قد ظهر لهُ في المنام قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ مريم امرأتك فانَّ المولود فيها من الروح القدس هو وستلد ابناً وتدعوا اسمهُ يسوع لانهُ هو يخلّص شعبهُ من خطاياهم وهذا كلّهُ كان ليتمّ ما قالهُ الرب بالنبي القائل : ها هي البتول تحبل وتلد ابناً يدعى اسمهُ عمانويل الذي تفسيرهُ معنى ( معنا ) الله . . . »

( قراءة في اعياد السيِّدة سحر ) : وفي تلك الايام قامت مريم مسرعةً الى الناحية الجبلية

الى مدينة جوذا ودخلت الى بيت زكريا وسلمت على اليشبع فلما ان سمعت اليشبع صوت سلام مريم ارتكض الطفل في جوفها وامتلأت اليشبع من روح القدس وصرخت بصوت عظيم وقالت : مباركة انتِ في النساء ومبارك هو ثمر بطنك ومن اين لي هذا ان تجيء امّ ربي الى عندي لانّ ها سما صار صوت سلامك في اذني ارتكض الطفل بابتهاج في بطني ومغبوطة التي صدّقت ان سيكون كاملًا لما قالهُ الربّ لها . فقالت مريم : تعظّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالاله مخلّصي لانهُ نظر الى تواضع امتهِ . لانّ ها منذ الان تغبطني الاجيال كلها لانّ القدير صنع عظائمهُ فيّ واسمهُ قدوس ( امتثال السيدة سحر ) ورحمتهُ الى جيل بعد جيل . على خائفيه صنع عزًّا بذراعهِ وشتّت المتجبرين بافكار قلوبهم . حطّ المقتدرين عن كراسيهم ورفع المتضعين . ومن الخير على ( ملأ ) نفوسهم واصرف ( وصرف ) الاغنياء خائبين . عضد اسرائيل عبدهُ وتذكّر رحمتهُ كالذي قال لآبائنا ابراهيم وذرّيتهِ الى الابد »

ومن الكتب النصرانيّة القديمة التي وجدناها نسخة من تاريخ البطريرك سعيد بن بطريق عند حضرة القس جرجس منش مجلّدة بخشب وفي اخرها « علّقهُ بيدهِ تلجه النصرانيّ الحموي سنة ٧١٣٢ لآدم (١٦٢٤م) » ويليها حاشية بيد الشماس نجل البطريرك مكاريوس تحتوي ترجمة ابن بطريق نقلًا عن تاريخ ابن المكين . وفي مكتبتنا الشرقيّة نسخةٌ كهذه خطًّا وورقًا وتجليدًا . وفي مكتبة حلب المارونيّة نسخة ثالثة اقرب عهدًا . وفيها نسخة من كتاب دعوة الاطبّاء لابن بطلان التي طبعتها مجلّة الطبيب حديثًا ومنها نسخة قديمة في مكتبتنا الشرقيّة . ومن الآثار المسيحيّة ايضًا كتاب الطبّ الروحاني وهو كتاب قديم يتضمّن الحثّ القانوني الملكيّ في ٤٧ فصلًا مع مختصر الجامع منهُ نسخة عند حضرة الخوري توما ايّوب ونسختان في المكتبة المارونيّة . ومنها كتاب الشرائع او الناموس القبطي كُتب منذ نحو ٥٠٠ سنة ويُصان في مكتبة الروم الكاثوليك وكان يخصّ سابقًا مكتبة اليسوعيين كما يظهر من كتابة لاتينيّة في اوّلهِ . ومنها كتاب بهجة المؤمن في مسائل شرعيّة وموضوعات فلسفيّة للشيخ الفيلسوف عبدالله بن الفضل الانطاكي كتبهُ في تاريخ ٦٥٦٠ للعالم ( ١٠٥٢م ) في مكتبة الروم الملكيين . ولهُ في مكتبة الموارنة كتاب المعاني الروحيّة في ٣٥ بابًا لماري اسحق الناسك نقلهُ عبدالله بن الفضل من اليونانيّة . ولهُ في مكتبة المنسنيور جرجس شاجت ترجمة البرهان في تثبيت الايمان للقديس سوفرونيوس . ووجدنا في حلب عدّة نسخ من كتاب الكهنوت لمار يوحنا فم الذهب الذي نشرهُ حديثًا بالطبع حضرة الاب قسطنطين الباشا . ومن كتاب برلام ويواصف المنسوب لمار يوحنا الدمشقي . وكذلك

اطلعنا حضرة القس جرجس منش على نسخة من مجموع رسائل بولس الراهب التي نشرناها في المشرق وعلى كتاب مُدرك النجاة ومحجّة الفوز بالحياة لمار طيماوثاوس اسحق مطران آمد . ومنهُ نسخة اتمّ واقدم في المكتبة المارونيّة

هذا بعض ما توفّقنا الى معاينته في الشهباء من التآليف القديمة . واما تآليف القرون المتأخرة فهي اكثر عدداً وسنوردها في مقالة اخرى ان شاء الله

وكان خروجنا من حلب في ٢ تشرين الاوّل شاكرين لله على ما حظينا بهِ في هذه الرحلة من مواجهة الفضلاء والاقتباس من انوار الادباء متمنّين للشهباء ان يجليها الله بحلل الاكرام ويُسبغ على اهلها شآبيب الانعام تحت ظلّ الحضرة الشاهانيّة ادامها الله بالالطاف الالهيّة والخيرات السماويّة

رحلة

# اول سائح شرقي الى امركة

(١٦٦٨ — ١٦٨٣)

عُني بنشرها وتعليق حواشيها الاب انطون رياط اليسوعي (تابع)

١٦ كيتو وضواحيها

ثم اني استقرّيتُ في دير رهبان مار عبد الاحد مقدار ساعتين فسمع حاكم هذا البلد عن قدومي وتزولي في الدير فخلّى سرايته وجاء سريعاً زارني وهو مغتاظ وعاتبني على ذلك . فقلت لهُ : « تعلم ياحبيبي ان الرهبان خرجوا للاقاتي قناقين (١ واتوا بي الى ديرهم . قل للرئيس وخذني الى سرايتك » . فما رضي الرئيس ان اطلع من الدير لكن تشارطوا مع بعضهم وفرضوا ان اكون طول النهار مع الحاكم واتغدى معهُ وفي الليل مع الرئيس وارقد في قلايتي انا وخادمي . لان هذا الحاكم المبارك كان رفيقاً معي من اسبانية وجئنا جملة في مركب واحد وكلما كانوا يضيفوني في المركب من الطعام المفتخر كنتُ اوجّههُ وصرنا اصحاباً بالصدق . وهذه البلدة حيث يسكن الاسقف هي غنيّة بالاموال ومزخرفة

١) قناق ( قُونَق ) كلمة تركية معناها ترل السفر او المرحلة بعد قطع السفر